مداخل نظرية لفهم استراتيجيات المقاومة ولبنائها

أبو يعرب المرزوقي(*)

أستاذ في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى.

تمهيـــد

الاستراتيجية التي تعنينا هي الاستراتيجية الشاملة التي تتجاوز آخر مراحل الحرب التقليدية في النظرية الاستراتيجية بمعناها العسكري كما حددها كلاوزفيتس، تتجاوزها إلى حرب التصفية الرمزية الساعية إلى ما يشبه التهام الآخر باستيعابه الثقافي بعد فشل حروب التصفية المادية. ومراحل الحرب التقليدية الثلاث تتحدد بغاياتها وهي:

١ ـ نزع سلاح العدو.

٢ ـ الاستحواذ على مصادر قوته المادي.

٣ ـ إخضاع روح العدو أو قتل إرادة المقاومة لديه.

هذا التحليل لأهداف الحرب لا يصح إلا إذا كانت الحرب محدودة ولا تستهدف قيام العدو أو كيانه ذا الوجود المستقل. ولما كانت مصادر القوة المادية والقوة الروحية كلتيهما من المال (**ما يمتلك ليكون سبباً لقيام البدن أو الروح**) بمعناه القرآني فهو يقبل التحليل قانونياً إلى وجهين: هما الحوز أو التصرف الفعلي (وهو غير شرعي من دون حق الملكية) والملكية أو الحق القانوني (الذي هو من دون التصرف الفعلي حق مجرد عديم الثمرة) فإن الفصل بين الرب الفعلي والرب الوهمي يفتح باباً جديداً في استراتيجيات الحروب، تضاعف المرحلتين الأخيرتين من الحرب التقليدية بمعناها عند كلاوزفيتس، فعندما تكون الحرب مطلقة وغايتها

(*) له مؤلفات عديدة، منها: **منزلة الكلي في الفلسفة العربية: قول في الأفلاطونية والحنيفية المحدثتين العربيتين** (١٩٩٤)؛ **إصلاح العقل في الفلسفة العربية: من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى اسمية ابن تيمية وابن خلدون** (١٩٩٤)، و**آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة** (١٩٩٩).

استهداف الكيان محواً مادياً، أو استيعاباً حضارياً للقيام المادي والروحي، تتضاعف المرحلتان الأخيرتان. فتصبح المراحل خمساً لا ثلاثاً وتصبح نظرية كلاوزفيتس غير كافية لفهم الحرب في عصر العولمة:

١ ـ نزع سلاح العدو.

٢ ـ الاستحواذ المباشر على مصادر قوته المادية، وذلك هو ديدن الاستعمار القديم، أو الاحتلال بالقوة المادية، أو بالغزو العسكري والحضور المادي للمستعمر. ومثاله الاستعمار الاستيطاني.

٣ ـ الاستحواذ غير المباشر على قوته المادية لتصبح مصدر ضعف بدل من أن تبقى مصدر قوة، وذلك هو ديدن الاستعمار الحديث الذي يحقق الاستحواذ بالقوة الرمزية، أو بالغزو الثقافي، فيحول القوة المادية إلى عامل ضعف عند أصحابها، وعامل قوة عند المستحوذ غير المباشر عليها. والمثال هو البترول والأرصدة المالية العربية.

٤ ـ اخضاع روحه المباشر: فرض عقيدة المستعمر على المستعمر بالقوة المادية. ومثاله: التبشير الديني، أو الإيدولوجي. وكلاهما مارسه الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي.

٥ ـ اخضاع روحه غير المباشر، أو قتل مقومات حصانته الروحية بحيث تصبح عناصر فقدان الحصانة ممثلاً بالاختراق القيمي: تحقيق الهدف السابق بتحريف عقيدة المستعمر من خلال تزييف كل تصوراتها لتفسد رؤاه إفساداً يجعل المستعمر لا يجد إيجابياً في عقيدته إلا ما يعتبر إيجابياً في عقيدة عدوه (تصبح قيم السيد مثالاً أعلى يذوب فيها العبد، وتلك هي الدرجة الأقصى من العبودية). ومثاله التأويل التحديثي لكل قيم الأمة بترجمتها المخادعة إلى قيم العدو الذي صار مثالاً أعلى يشرع لكل البشرية في كل المجالات القيمية.

وهكذا، فالعلة في ضرورة ازدواج المرحلتين الأخيرتين هي طبيعة الحرب المطلقة التي تستهدف قيام الأمة، أو وجودها المستقل سعياً إلى استيعابها الرمزي، أو الثقافي. وقد يكون لتجربة أوروبا الأولى في استعمار أمريكا الفضل في نقلة الفكر الاستعماري الأمريكي من تصفية المستعمر المادية إلى تصفيته الرمزية، فبعد أن صفَّوا الهنود الحمر، اضطروا إلى استيراد العبيد، إذ الأرض الخالية من سكان قابلين للعبودية لا يمكن استثمار ما فيها من ثروات سطحية، أو عميقة خاصة، إذا كانت بسعة أمريكا. واستوردوا العبيد من أفريقيا. لكن عمل العبيد بمحرك العنف مناف للغرض من العبودية فاضطروا إلى تحرير العبيد انتقالاً من العبودية الصريحة إلى العبودية المقنعة، وأفضل أشكالها مواطن الدولة الرأسمالية الأمريكية: فهو مرهون بالقروض المرابية التي تجعله بالقوة يملك كل شيء ولا يملك شيئاً بما فيها نفسه، فيصبح عبد رب العمل لئلا يفقد كل شيء بمجرد العجز عن سد الديون.

في هذه الحرب يمتنع تحقيق أي مرحلة من مراحل الحرب النسبية بمعناها التقليدي المكتفي بالتصفية المادية للعدو من دون هذه المضاعفة التي تضيف إلى الحرب المادية الحرب الرمزية، أو ما يسميه عدونا حرب الأفكار، أو ربح القلوب والعقول. ذلك أن الاستحواذ

والإخضاع المباشرين يقويان بحضورهما المادي الملموس نزعة المقاومة عند الشعوب المستعمرة، لأن العدو فيها بيِّنَ المعالم بخلاف ما هو عليه في الحرب الرمزية: وتلك هي علة نجاح حروب التحرير من الاستعمار المباشر ببعديه المادي والروحي، وصعوبة التحرر من الاستعمار غير المباشر، فغرب ما بعد الاستعمار القديم استحدث حيلة الاستحواذ والاخضاع غير المباشرين ليخفي حقيقة العداء، فضلاً عن كونهما أقل كلفة لأن مفعولهما دائم لعلتين:

فهما تغنيان عن المقاومة في الغالب، إذ يبدو العدو فيها وكأنه حريص على تنمية المغزوِّين مادياً وروحياً (مثال ذلك ما حصل في أوروبا واليابان وكوريا وأغلب التوابع الأمريكية في العالم وبالمقابل التوابع السوفياتية) فتتوطد التبعية.

وعند التعذر تُدخلان الأمة التي يراد إخضاعها في حرب أهلية يحركها العدو. وذلك ما حدث في فييتنام وفي كوريا وهو ما نراه يحدث في العراق ولبنان وفلسطين حيث يصبح الشعب منقسماً بين حزبين متقاتلين حول نموذج الوجود الاجتماعي والحضاري ذاته.

يتناسى المحللون الاستراتيجيون العجِلون أن الغرب والإسلام مجموعيْن لا يمثلان إلا ثلث البشرية، فكيف نكتفي بفهم الوضعية الاستراتيجية الحالية بالاقتصار عليهما؟

ويلجا العدو إلى هذه الخطة عندما يكتشف أن المقاومة لن تتوقف ما ظل قيام الأمة المادي والروحي موجوداً، القيام الذي يتمثل في سيادة الأمة الفعلية على مصادر قوتها المادية ومصادرها الروحية؛ أعني ما كانت المرحلتان الثانيتان من الحرب النسبية تسعيان للاستحواذ المباشر عليه استحواذاً بيِّناً يستفز المستعمر فيثور ويقاوم. حيلة الاستعمار الجديد وهو أمريكي بالأساس (**وهو من جنس التبشير الديني الذي حوَّل عبيد أمريكا إلى مسيحيين بعد أن كانوا إما مسلمين، أو وثنيين، لأنهم من أفريقيا، ومثله التبشير الأيديولوجي، سواء كان اشتراكياً أو رأسمالياً**) يستعمل الفرعين اللامباشرين اللذين يعملان بمنطق الحرب المطلقة التي تستهدف القيام والوجود المستقل ذاته، لأنها تستبدل مصادر القوة المادية والروحية الفعلية بمصادر وهمية فتفرغ القيام من شروط الإرادة المستقلة ليكون مجرد ظاهر من الوجود: **كما هي الحال في الرفاه المادي الخليجي والتعبد الميت في الإسلام التقليدي الذي لا يزعج أمريكا بل يخدمها كما حصل في حربها السابقة على الاتحاد السوفياتي.**

إن الشعوب التابعة وفاقدة السيادة يبدو تصرفها الظاهر في ثروة أمتها المادية وثروتها الروحية وكأنه تصرف حر. لكنه يمثل دليلاً قاطعاً على كون الأمة قد صارت من دون السيادة الفعلية في الأولى ومن دون القدرة الابداعية في الثانية:

١ ـ من هنا نفهم الاستقلال الوهمي، لأن كل الدول التي استقلت باتت أكثر تبعية وأقل قدرة على القرار الحر، وأَخْذ أمرها بنفسها.

٢ ـ ومن هنا نفهم الثروة الوهمية لأن كل الدول التي تملك الطاقة مثلاً ليس لها من سلطان فعلي إلا على الحياة البهيمية التي يمكن أن تتحقق بفتات هذه الثروة إلى حين نضوبها.

وبذلك تكون خطة المحاولة بعد المقدمة على النحو التالي:

١ ـ **المسألة الأولى**: نعرض فيها خارطة الإسلام المقاوم ومنطقها المادي والروحي

٢ ـ **المسألة الثانية**: نحدد فيها مفهوم المقاومة لنحلل استراتيجيتها ونميزها عن الإرهاب

٣ ـ **المسألة الثالثة**: نحدد فيها مفهوم القيام أو الوجود المستقل واستراتيجيته

٤ ـ **المسألة الرابعة ندرس فيها آليات التأثير المتبادل بين حضارتنا وتغريب العالم**

٥ ـ **المسألة الأخيرة: نفسر فيها الآية ٦٠ من الأنفال تحديداً لمعنى الاستعداد والعدو.**

ثم نختم البحث بتعليل الحاجة إلى فكر استراتيجي جديد يجمع بين تحليل الشرط العقلي للوجود الإنساني وتأويل شرطه النقلي المتطابقين في حضارة الرسالة الخاتمة.

أولاً: الإسلام في منزلة المقاوم الكوني

يتناسى المحللون الاستراتيجيون العجلون حقيقة ساطعة، أن الغرب والإسلام مجموعين لا يمثلان إلا ثلث البشرية، فكيف نكتفي بفهم الوضعية الاستراتيجية الحالية بالاقتصار عليهما؟ أفيكون العالم خالياً من غير هؤلاء أم إن ثلثي البشرية هباء وليس لهم دور في تحديد دور الرسالة الخاتمة ؟ لماذا يهملون العامل الجوهري الذي يمكن أن يُفهمنا ما جرى لأنه يعلل كل المستويات السابقة من التحليل؟ إن مصير الإسلام لا يمكن أن يتحدد إلا من حيث هو شهادة على العالمين. يقتضي ذلك أن يكون تحديد مصيره تحديداً لمصير الكون. ومن ثَمَّ فلا يمكن أن يستثنى من هذا التحديد ثلثا البشرية فيكون مصيره مقصوراً على علاقته بالغرب بالمعنى الجغرافي، لكأن الإنسانية تنحصر فعلاً لا تمثيلاً في ثلثها. أما إذا ربطنا مفهوم الغرب بمعنى تغريب العالم بالمعنى الحضاري، فمصير البشرية يمكن عندئذ أن يفهم من خلال علاقة الإسلام به تصحيحاً لانحرافات الحضارة العولمية التي أخلدت إلى الأرض بقيم الحضارة الكونية التي تعتبر الأرض مطية لما يتعالى عليها من دون أن تفقدها ما لها من قدسية ذاتية.

ويمكن أن نثبت هذه العلاقة الكونية من خلال تحليل مقومات الإسلام المقاوم لتغريب المعمورة القسري أو ما يسمى بالعولمة التي تجوع ثلاثة أرباع البشرية إشباعاً لبطر مصاصي دم المعمورة. فبؤر الصدام التي يعد المسلمون أحد أطرافها كونية وغير مقصورة على العلاقة بالغرب الجغرافي، بل هي مرتبطة بالتغريب الحضاري حتى وإن كان السائد على ركح التاريخ الساخن هو العلاقة المباشرة بين المسلمين والغرب. إن الغرب، من حيث هو عولمة، هو تغريب العالم وليس رقعة جغرافية.

بؤر الصدام عشر. وفيها تنبض المقاومات التي تبين أن مصير الإسلام لا يمكن أن يقتصر تحديده على العلاقة بين الإسلام والغرب الجغرافي، وأن ظرفيته الوجودية الحالية هي منزلة المقاوم في سعيه إلى استرداد منزلة القيام الذي يمكنه من الإسهام الفعلي في تحديد آفاق البشرية، رمزاً إلى هذا الدور بتغيير القبلة الحضارية من جديد:

١ ـ البؤر **الخمس الأولى** مقاومات عربية إسلامية قلبها فلسطين وجناحاها الشرقيان لبنان والعراق وجناحاها الغربيان الصومال والسودان. وللقلب معنى مضاعف فهو رمزياً فلسطين، لكنه مادياً العراق. و**الأول** صدام مباشر مع إسرائيل وصدام غير مباشرة مع أمريكا. و**الثاني العكس**.

٢ ـ والبؤر **الخمس الثانية** مقاومات إسلامية غير عربية قلبها كشمير وجناحاها الشرقيان فطاني ومندناو وجناحاها الغربيان افغانستان والشيشان. وللقلب هنا كذلك معنى مضاعف. فهو رمزيا كشمير لكنه ماديا أفغانستان. و**الأول** صدام مباشر مع الهند وصدام غير مباشر مع أمريكا. و**الثاني العكس**.

وبذلك يتبين الثابتان الوحيدان في المعادلة الدولية: المسلمون والأمريكيون. **والأولون** عادت إليهم قيادة المستضعفين و**الثانون** قيادة المستكبرين. ويتضح دور أمريكا في حالتي المقاومة العربية ـ الإسلامية والإسلامية غير العربية وضرورة الحلف الخفي بين إسرائيل وكل العناصر التي نحصيها في توصيفنا للمقاومة على الرغم من تغافل متطفل للاستراتيجيين الذين ما يزالون يحيون على ذكريات الحرب الباردة ومعانقات زعماء عدم الانحياز. لكن فهم هذه الحقائق يبين لنا كونية الصراع من حول الإسلام بعد تكون السوار المربع المتربص أهله بالمسلمين كماشة خانقة: أوروبا المتحدة وروسيا غرباً والهند والصين شرقاً.

فلا يمكن أن تحسم معركة فطاني ومندناو من دون ربطها بعلاقة جنوب شرقي آسيا بعلاقة الصين والهند بأمريكا. ولا يمكن أن تحسم معركة الشيشان وأفغانستان من دون ربطها بعلاقة قلب آسيا بعلاقة الهند وروسيا بأمريكا.

ولا يمكن أن تحسم معركة الصومال والسودان من دون ربطها بعلاقة قلب أفريقيا بعلاقة أوروبا والصين بأمريكا. وبذلك تكتمل الدائرة فيتبين أن أمريكا هي العامل الثابت في الحرب على المسلمين الذين هم العامل الثابت الثاني في المعادلة الكونية. وأمريكا تمثل القوة الأعظم المنفردة بالفعل الموجب، والمسلمون يمثلون القوة الأعظم لرد الفعل المقاوم. وكل القوى المحيطة بدار الإسلام مرشحة لأن تصبح قوى عظمى. لذلك فهي ذات صلة بالحرب على الإسلام المقاوم في البؤر العشر التي وصفنا. وهي تتربص بالثابتين لتكون الفائز الأكبر من نتيجة المعركة: هي (الصين والهند وروسيا وأوروبا المتحدة) تتربص بطرفي الصراع (المسلمون والولايات المتحدة) لتكون لها وراثة الأرض بعد أن يهدما بعضهما البعض.

وبهذه المعادلة العشرية ذات الثابتين: الإسلامي مقاومة من أجل استئناف دور القوة العظمى، والأمريكي مقاومة من أجل البقاء قوة عظمى، يدخل ثلثا البشرية الآخران من خلال وجودهما في البؤر الصراعية كما أسلفنا، لأن ما بقي بعد ما ذكرنا هو من توابع هذه القوى الخمس على الرغم مما يمكن أن يعد شذوذاً في موقف بعض دول أمريكا اللاتينية: أمريكا والصين والهند وروسيا وأوروبا المتحدة وذلك ما كان علينا بيانه .(C.Q.F.D).

أما إسرائيل فهي الفيروس المتطفل الذي يمتص دماء كل هؤلاء بما له من خبرة تجعله يستخدم الكبار بإيهامهم أنه يخدمهم. ولا يعجبن أحد أن يكتشف المسلمون ـ إذا لم يفهموا

هذه المعادلة فبقوا في الصراع مع العدو المباشر وتناسوا الأعداء المتربصين ـ أن إسرائيل ستتقاسم الاستبداد بالأمر في العالم الإسلامي مع هذا السوار بدلاً من تقاسمها إياه مع أمريكا.

في هذه المعادلة العشرية تتحدد مسألة الحسمين: الرمزي في لبنان، والفعلي في العراق بالصورة التالية، فمنزلتهما في محددات الخارطة العربية ـ الإسلامية الداخلية والخارجية تجعل ما يجري فيهما شبه قضاء وقدر. ويتعلق الحسم بأدواء الأمة التي نحدد حيناً حسماً رمزياً وحيناًحسماً فعليا. فأما الحسم الرمزي لأدواء الأمة التي تحركها أمريكا للسيطرة عليها فيمثله لبنان. وأما الحسم الفعلي فهزيمة لأمريكا هزيمة نهائية، وتجاوز أدواء الأمة تجاوزاً يحدد آفاق المستقبل، فيكون في العراق استكمالاً للحسم الرمزي. ونحن سنركز عليه في لبنان تاركين مسألة الحسم الفعلي في العراق لمناسبة أخرى. وتبقى فلسطين غاية الغايات في الصراع، فالحسم فيها رمزياً وفعلياً لن يكون قبل هذين الحسمين الرمزي في لبنان والفعلي في العراق، لعلة جوهرية هي عين الجدلية التي أعادت تاريخ الإنسان الخلقي إلى تاريخه الطبيعي، أعني منطق العولمة التي تحرك آلياتها تحريك الدمى المافيات الصهيونية الرأسمالية التي تستمد سلطانه كله من تحريف القيم، جاعلة إياها آليات استعباد على النحو التالي: فقيم الرزق صارت آليات التجويع المادي الذي يفسد أبدان غالبية البشر، وقيم الذوق صارت آليات التجويع الروحي الذي يفسد أرواح غالبية البشر، وقيم العمل (السلطة الزمانية أو نظام إدارة قيم الرزق) صارت آليات تحالف مافياوي لاستعمار العالم وقيم الوجود (السلطة الروحية أو نظام قيم الذوق) صارت آليات تخدير جماعي لتأييد التحالف المافياوي لاستعمار العالم. لا عجب إذاً إذا بات تحرير فلسطين غير مشروط بتحرير المسلمين وحدهم بل لا بد من تحرير كل العالم بدءاً بالغرب نفسه من السرطان الذي أصاب روحه عندما بات يتصور الصهيونية، أو التوراتية الجديدة، منبت روحانيته فعاد إلى نظرية شعب الله المختار الذي يجعل الأشرار سادة العالم يستعبدون الأخيار ويفسدون الكون.

أما لبنان فلا يمكن أن يكون من منظور فلسفة التاريخ وفلسفة الدين ما نعلمه عنه ثم يكون حدوث ما حدث فيه مجرد نتيجة لقصد عرضي لهذا الحزب أو ذاك مباشرة أو بتوظيف قوة إقليمية أو دولية في حين أن الحدث كان جزءاً لا يتجزأ من أمر مصيري يحتمه تاريخ البشرية وتاريخ الأديان إذا ربطا بمعادلة البؤر العشر التي وصفنا في المقاومات العربية والإسلامية التي تخرجنا من حصر المعركة في ثلث البشرية.

من ينسى أن لبنان الذي يمثل في الجغرافيا السياسية ملتقى الحضارتين العربية الإسلامية والغربية المسيحية منذ النشأة الأولى للإمبراطورية الإسلامية (**الدولة الأموية**) يمتنع عليه أن يفهم أبعاد ما حدث في الحرب الأخيرة، فلا يقدر أهمية صمود اللحمة بين مكوني لبنان الممثلين لهذين البعدين. دلالة الحدث في لبنان لا تفهم إلا من منطلق كونه رمز التلاقي بين الحضارتين وعيِّنة من العولمة الحالية على الأقل بجالياته إذا لم يكن بسياحته ومركزيته في حركة رأس المال المادي والرمزي العربيين. بذلك وبذلك فقط نتمكن من التحليل العلمي الموضوعي لحدث الحرب الأخيرة الذي يمكن اعتبار دلالته من جنس ما يحدث بين

صفائح الكرة الأرضية في لحظات الزلازل. لذلك ففيها يمكن أن تجتمع خاصيات البؤر العشر التي حددنا ولاسيما خصائص القلبين المضاعفين، ومن ثَمَّ دوره في المستوى الرمزي من المسألة، فالحرب الأخيرة في لبنان جعلته يجمع رمزية فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان وفعليتها، فصار عند المسلمين قلب القلوب بتجاوز أدواء الأمة الخمسة التالية. في لبنان تنكشف مقومات الأدواء التي تعانيها الأمة والتي تجعل حرب المسلمين الأهلية، بحسب هذه الأبعاد، غاية حرب المعمورة الأهلية في مستواها الرمزي، ومن ثَمَّ فهي فجر نهايتها كما يحددها القرآن الكريم لتحقيق شروط الأخوة البشرية كما نصت عليها آية التعارف:

١ ـ الداءان الموروثان من الماضي الذاتي: صراع الملل (بين المسيحية والإسلام واليهودية) وصراع النحل (نحل هذه الأديان الثلاثة وخاصة نحل المسلمين: السنة بأطيافها والشيعة بأطيافها).

٢ ـ الداءان الموروثان عن الماضي الأجنبي: صراع القوميات (العربية والفارسية والتركية والكردية والبربرية إلخ...) وصراع الطبقات (الأغنياء والفقراء ليس في لبنان فحسب بل في كل الوطن العربي بحكم كون لبنان ملتقى صراعاتهم)

٣ ـ والداء الجامع لهذه الأدواء هو أزمة الوجود الإنساني التي تعين سنامها الأرفع في الوطن العربي ورأس الدمل منه ليس هو إلا لبنان: إنه ما يفاد بتركيز الطاغوتين الروحي والمادي على الوطن العربي الذي هو قلب العالم الإسلامي، الطاغوتين الممثلين بما بات يعتبر رمز الروحانية الغربية المريضة (إسرائيل) ورمز المادية الغربية المتوحشة (أمريكا).

أهمية الحدث أنه قدم البرهان الساطع على بداية نجاح اللحام بين الحضارتين، ومن ثَمَّ على امتناع تفسير اللحظة التاريخية بنظرية صدام الحضارات. إن عدم سقوط اللبنانيين في الحرب الأهلية مرة ثانية دليل قاطع على ثبات التأليف المتعالي على مكونيه. لذلك فمن المجحف التقليل من دور الطوائف الأخرى، وحصر البطولة في واحدة منها لبنانياً وعربياً وإسلامياً، فلولا تحقيق شروط الصمود السياسي خلال شهر الحرب لامتنع على المحاربين مواصلة الحرب ولأنهار كل شيء. لذلك فدور الذين ساعدوا على صمود الليرة اللبنانية خلال الحرب مثلاً ليس أقل من دور من أمد الحزب بالصواريخ، ذلك أن عدم انهيار الدولة اللبنانية وصمود الشعب اللبناني لا يكفي لتحقيقهما الأيديولوجيا مهما علت روحانيتها، بل لا بد من الصمود الاقتصادي الذي يحول دون الشعب والجوع. وعلى الرغم من أنه ليس من الضروري أن يصمد كل شعب شبعان فإنه من الحتمي ألا يصمد أي شعب جائع.

بعد أن أدركنا علة التبسيط الخفية ما هي، بات بوسعنا أن نفهم الثمرة المرة التي تترتب عليه فتفسد فهم لحظة التاريخ الإنساني الراهنة التي هي لحظة كونية، كان ركح الحدث فيها ملتقى الحضارتين في عصر العولمة، اختار له الدهر المكان الوحيد الذي يمكن أن يعتبر ممثلاً بجالياته، تخلل العالم العربي ـ الإسلامي لكل المعمورة فتكون أحداثه أحداثا كونية بالذات، وبخاصة إذا كان طرفها الثاني له في الغرب منزلة مناظرة لمنزلة لبنان في الشرق، فاللحظة الراهنة من تاريخ العرب والمسلمين يمكن للبنان أن يمثلها أفضل تمثيل (الحرب الأهلية العربية الباردة

بما كان يعاني من دائي الماضي ودائي الحاضر). واللحظة الراهنة من تاريخ الغرب والمسيحيين أراد الغرب الجبان أن تمثلها إسرائيل أفضل تمثيل (الحرب الأهلية الغربية الباردة بما تمخضت فيها العنصرية العرقية والدينية كما في المسألة اليهودية والمسألة الاستعمارية). ولحظة المعمورة يمكن أن تمثل هذه المعادلة المضاعفة أفضل تمثيل إذا ربطناها بالبؤر والمقاومات العشر التي بينا فيها كيف باتت دار الإسلام فريسة بقية القوى العالمية التي تستغلها إسرائيل للتطفل على العالم فتكون قوة عظمى من دون مقومات الوجود الذاتي، فضلاً عن مقومات القوة العظمى. إنها لحظة تجاوزت الكونية المقصورة على التمني الفلسفي والديني إلى الكونية المتحققة في الواقع الفعلي بعد أن شحت الثروات وتكاثرت النسمات فتكاد البشرية أن تعود إلى الصراع على الماء والكلأ كالقبائل البدائية بدءاً بالصراع على الطاقة والهواء الطلق والماء والغذاء.

بذلك نفهم الحدث في ضوء مستويات عقدة الاستراتيجية الكونية الراهنة. فنضيف إلى المستويات الثلاثة التي يرد إليها التحليل في القراءات التبسيطية (١ ـ بين حزب الله وإسرائيل ٢ ـ بين المحورين غير المباشرين من الدرجة الأولى: محور إيران مع الأول ومحور أمريكا مع الثانية ٣ ـ بين المحورين غير المباشرين من الدرجة الثانية: الإسلام والغرب) التي تتدخل في الحدث من دون أدنى شك على مستويين آخرين يمكن اعتبارهما متقدمين عليها لكونهما متبوعين منها.

١ ـ أما المستوى الرابع فبيِّن أنه فوق هذه الثلاثة شمولاً: طرفا الصراع الأقصيان قبالة بقية العالم كما بينا عندما ضممنا الثلثين الباقيين من سكان المعمورة.

٢ ـ وأما المستوى الخامس فيبدو دونها شمولاً: كل إنسان قبالة كل إنسان في كل هذه المستويات لكأننا عدنا لمصارعة الكل للكل.

لكن هذين الوجهين من علل التدافع بين البشر متطابقان في الجوهر لأن المستوى الرابع هو في الحقيقة الوجه الظاهر من حركية التاريخ الجماعي في المعمورة كما يتحدد بمنطق المجموعات، والمستوى الخامس هو الوجه الباطن من تلك الحركية نفسها في كل مجموعة. وتلك حقيقة واحدة ذات وجهين، هي التحقق الفعلي لوحدة البشرية الخاضعة لسنة التدافع الكوني في التاريخ الإنساني كما يحددها القرآن الكريم بفضل حدوثها في مرحلة تحقق الكونية تحققاً تتطابق فيه سياسة الشعوب الداخلية مع سياستها الخارجية، بسبب وحدة المجال الإنساني بعد أن توحدت المعمورة وبات قانون التاريخ الطبيعي **(الصراع من أجل أسباب الحياة)** مطابقا لقانون التاريخ الحضاري (الصراع من أجل قيم الحياة). ولم يبقَ إلا تحقيق الدولة الكونية أو أمة الأخُّوة البشرية التي يدعو إليها القرآن الكريم.

أما الوجه الظاهر من هذه المعادلة فهو دور بقية سكان المعمورة في صراع هؤلاء المستحوذين على الواجهة التاريخية؛ أعني ممثلي تغريب العالم أو المستكبرين وممثلي التآخي البشري أو المستضعفين. وأما الوجه الباطن فهو صراع البشر في الجماعة نفسها وبين الجماعات على مقومات الوجود الإنساني المادي والروحي بدرجتيهما: أعني قيم الرزق (ما يتقوم به وجود الإنسان المادي) وقيم الذوق (ما يتقوم به وجود الإنسان الروحي) في الدرجة **الأولى** التي تتحكم

في تاريخ البشرية الطبيعي الملازم وجودها ملازمة أبدية وقيم العمل أو قيم السلطان على الرزق (السلطة الزمانية) وقيم الوجود أو قيم السلطان على الذوق (السلطة الروحية) في الدرجة **الثانية** التي تتحكم في تاريخ البشرية الخلقي الملازم لوجودها ملازمة أبدية.

وتبقى القيم التي هي ذات صلة بفهم دلالة كل هذه القيم للعمل بها خدمة لها واستخداماً، خضوعاً لها وإخضاعاً ومن ثَمَّ تبعية لها واستتباعاً؛ أعني قيم النظر التي هي التحليل الذي يمكن أن يكون ملتزماً موقف أحد هذه المستويات فيكون عقيدة ويمكن أن يتحرر منها جميعاً ليحررها كلها فيكون علماً: وهذه القيم النظرية هي التي تنطلق منها محاولتنا لإنارة آفاق البشرية استلهاماً للرسالة الكونية التي يبشر بها القرآن الكريم.

إذا بات فعل المقاومة مجرد تعبير عن الغضب والانتقام فإنه لن يتجاوز التهديم. لذلك، فهو سرعان ما ينتقل من المقاومة إلى الإرهاب.

وأما ثمرتها المرة فهي استحالة أن يفهم المرء الحروب الأهلية الخمس الجارية بالقوة في مستويات الصراع المتراكبة التالية والناتجة من علاج ما يجري في الوطن العربي من منطلق هذه القراءات الحروب التي يسعى الإسلام إلى تخليص البشرية من أسبابها بفضل ثورته القيمية في الرزق والذوق والعمل والوجود وبالنظر إلى ثورته التي تحاول تحقيق الأخوة البشرية:

١ ـ الحرب الأهلية في لبنان: بين حزب الله ومن يعارضه.

٢ ـ الحرب الأهلية في العالم الإسلامي: سوريا وإيران وكل ما يوصف بحركات المقاومة لغير الحضارة الإسلامية ولنسمهم كما يسمون أنفسهم بمحور الممانعة، وكما يسميهم عدوهم محور الإرهاب وبقية المسلمين الذين يوصفون من المنظور **الأول** بمحور الاستسلام للغرب، ومن المنظور **الثاني** بمحور الانضمام إلى العالم الحر.

٣ ـ الحرب الأهلية في الغرب: إسرائيل وأمريكا وكل ما يوصف بحركات المقاومة لغير الحضارة الغربية ولنسمهم كما يسمون أنفسهم محور الممانعة، وكما يسميهم عدوهم محور الإرهاب الاستكباري وبقية الغربيين الذين يوصفون من المنظور **الأول** بالمستسلمين للشرق ومن المنظور **الثاني** بمحور الانضمام إلى محبي السلام.

٤ ـ الحرب الأهلية في مجال الصراع الدولي الضيق الذي يريد محورا الممانعة أن يطلقاه: بين الغربيين بعامة والمسلمين بخاصة إما من منظور ديني بمعنى الحروب الصليبية أو من منظور علماني بمعنى حضارة الحرية وحقوق الإنسان وحضارة الفاشية والعبودية..

٥ ـ ثم الحرب الأهلية في المعمورة: وتلك هي المحدد الحقيقي لكل الاستراتيجيات الخفية التي تتحكم في المعادلة الدولية؛ أعني الحرب الأهلية بين كل أطراف الصراع الأربعة السابقة والمتربصين بهم من بقية سكان المعمورة أي المستفيدين من هذه الحرب الضروس في قلب العالم خلال نقلته من الحضارة التي سادت الكون منذ سبعة آلاف سنة إلى حضارة كونية يمكن أن ينتقل فيها مركز العالم فيلتقي الشرق الأقصى بالغرب الأقصى (الصين بالغرب

الأقصى أو أمريكا حول المحيط الهندي بدلاً من المحيط الأطلسي) ونبقى نحن ذبيحة العرس التي «تخرج من المولد بلا حمص» كما يقول إخوتنا في مصر.

ثانياً: تعريف المقاومة والإرهاب

لكن المقاومة ليست إلا علاجاً استعجالياً أو إسعافاً أولياً ناتجاً عن عدم توازن ميزان القوى بين طرفي النزاع. ومن ثَمَّ فالأمة التي تحدد دورها بفعل المقاومة تعترف بأنها مغلوبة مادياً ولو إلى حين فتنقل المعركة الحضارية إلى بعدها الرمزي، خط الدفاع الأخير في تاريخ كل الأمم التي تصارع من أجل تحقيق شروط الاستئناف والانبعاث. وعلة فقدان توازن القوى المادي هي عدم العمل بالقواعد التي وضعتها آية الردع[١]. لذلك فالمقاومة ليست فعلاً بل هي رد فعل. ورد الفعل يقتضي بالطبع ألا يكون غاية الحل بل هو بدايته. ورد الفعل يخضع لاستراتيجية محكومة بخمس صفات هي:

١ ـ غايته اسعافية استعجالية: اسعاف وظائف الأمة المعطلة.

٢ ـ أداته تعويضية: التعويض عن الأعضاء المفقودة.

٣ ـ مداه قصير: علاج مؤقت.

٤ ـ عامل فاعليته رمزي: القوة الروحية للذات والتأثير الرمزي في العدو.

٥ ـ أفق عمله سياسي: التفاهم مع العدو وليس القضاء عليه إذ قد يصبح صديقاً بالقياس إلى من هو أعدى منه في مستقبل قريب.

أما إذا بات فعل المقاومة مجرد تعبير عن الغضب والانتقام فإنه لن يتجاوز التهديم. لذلك، فهو سرعان ما ينتقل من المقاومة إلى الإرهاب. وبات من الضروري أن نميزها منه بمقابلات هذه المحددات، فصفاتها يمكن أن تنقلب إلى ضدها، وذلك هو معنى تحولها إلى إرهاب: فتظن المقاومة علاجاً دائماً وتعتبرها أداة ثابتة ويخال أصحابها أن مداها نهائي وفاعليتها مادية فتفقد الأفق السياسي. والمعلوم أن الإرهاب الذي يسيطر على لحظتنا التاريخية يتكون من جنسين ذوي صنفين: الجنس **الأول** صنفاه موروثان عن تاريخنا الحديث، أو عن علاقة قوانا السياسية بالحرب الباردة والجنس **الثاني** صنفاه موروثان عن تاريخنا الوسيط أو عن علاقتها بالحرب الأهلية. أما الجنس الأول بصنفيه فهو:

إرهاب الحركات التي ورثناها عن الحلف بين الأنظمة العربية الحاكمة باسم الدين وأمريكا لمحاربة حلف الأنظمة العربية والاتحاد السوفياتي ولنسمها الإرهاب الأصلاني.

وإرهاب الحركات التي ورثناها عن الحلف بين الأنظمة العربية الحاكمة باسم القومية

---

(١) انظر: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ [**القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٦٠].

والاتحاد السوفياتي لمحاربة حلف الأنظمة العربية الحاكمة باسم الإسلام وأمريكا ولنسمها الإرهاب العلماني.

وأما الجنس **الثاني** بصنفيه فهو الانحراف الممكن الذي تقع فيه المقاومات عندما تنزلق تحت تأثير الجنس **الأول** فتصبح مثله لظنها أنه أكثر فاعلية منها متناسية طبيعة فاعليتها. وهذه المقاومات هي كذلك جنسان:

جنس الحركات التي تهدف إلى محاربة الاحتلال الأجنبي السياسي المباشر وغير المباشر وحلفائهما الداخليين: وهي قابلة لأن تكون مقاومة أصلانية أوعلمانية وذلكما هما صنفاها.

جنس الحركات التي تهدف إلى محاربة الاحتلال الأجنبي الثقافي المباشر أو غير المباشر وحلفائهما الداخليين: وهي قابلة لأن تكون مقاومة أصلانية أوعلمانية وذلكما هما صنفاها.

ويمكن أن نحرر الحركات **الأولى** من الإرهاب بردها إلى الحركات **الثانية** مثلما يمكن أن تنحط حركات المقاومة فتصبح حركات إرهاب كما أسلفنا بانقلاب صفاتها التي أحصينا إلى الضد. والهدف من استراتيجة القيام هي تأهيل حركات المقاومة لتكون حركات ذات سياسة مؤثرة في الصورة التي نحددها في هذه المحاولة وتخليص الأمة مما ورثته عن الحرب الباردة من حركات إرهابية هدمت الذات العربية وأدخلتها في حرب أهلية بدأت باليمن وانتهت في الكويت وتكاد تعم جل البلاد العربية قطراً بعد قطر لحمق النخب التي باتت تدعو إلى ما يشبه الفوضى العقيمة التي تسميها أمريكا الفوضى الخلاقة: حركة من الثورات على ما بقي من حياة مدنية في الأقطار العربية بزعم الثورة على الطغيان والفساد فيصومل أو يعرقن أو يأفغن كل الوطن.

ذلك أن مثل هذه الخطة تكون ذات معنى لو حققنا أدوات تحويلها إلى فوضى خلاقة حقاً أعني من دون أحزاب قومية مؤثرة قادرة على تحريك الجماهير تحريكاً يجعل حرب التحرر من الاستعمار الأمريكي حرب توحيد لتجنب ما حدث في حرب التحرير من الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي الحرب التي تحولت إلى توطيد التجزئية. والمعلوم أن للإرهاب اليوم وظيفة سلبية قد تفسد حركات المقاومة فتساعد العدو على تحقيق التفاف رأيه العام من حوله ليخوض الحرب المكلفة حرب إخضاعنا والقضاء على كل مقاومة بالعنف المطلق الذي هو قادر عليه. وذلك ما ينبغي أن تتجنبه حركات المقاومة، لأن شرط الانتصار في كل مقاومة ذات استراتيجية سياسية هو دائماً محاربة العدو رمزياً وخلقياً في عقر داره لفصله عن رأيه العام من دون أن يتنافى ذلك مع المقاومة المسلحة ذات القيم التي حددها الإسلام من خلال التعامل مع القتال بحسب حدوده الإسلامية فضلاً عن غائيته السياسية.

ومثلما يسعى العدو إلى تيسير شروط نصره علينا بالحرب الأهلية التي يحركها لدينا، وهي حرب أهلية دامية لتخلف العلاقات السياسية عندنا، فإن على المقاومة أن تيسر شروط النصر عليه بالحرب الأهلية التي نحركها لديه، وهي حرب أهلية لا يمكن أن تكون دامية لتقدم العلاقات السياسية عنده. لذلك فهي ينبغي أن تكون حرباً أهلية رمزية، أو خلقية تجعل رأيه العام يرفض حربه علينا. ذلك هو شرط النصر في كل مقاومة هي، كما أسلفنا، اعتراف ضمني بعدم توازن القوى المادية لصالح العدو.

ثالثاً: تعريف القيام أو الوجود المستقل

أما القيام، فهو بخلاف المقاومة، النظام الصحي المغني عن الحاجة إلى الاسعاف الاستعجالي، لأنه علاج الذات المتواصل لذاتها إلا في الحالات الضرورية. وعندئذ يكون العلاج غير استعجالي، لأنه مبني على قواعد علمية تتصدى لخلل الصحة المؤقت، فترجع المزاج العمراني إلى فاعليته المتصلة، لأنها تعالج أسباب الأدواء بدلاً من علاج أعراضها. ولن نستطيع أن نحقق هذه النقلة من المقاومة إلى القيام، ما لم نتخلص من التركيز على الإضافيات فنذكر حدودها التي تمكن من فهم الإضافة في حدودها الإضافية.

١ ـ فنحن لا نرى العدو إلا في إضافته إلينا.

٢ ـ ونحن لا نرى أنفسنا إلَّا في إضافتنا إلى العدو.

٣ ـ غير أن العدو له قيام بذاته: من هو (رمزا السلطة الرمزية والمادية الغربية بعامة أو العولمة، وبصورة عرضية ممثلان بإسرائيل وأمريكا) وما أدواؤه التي تمثل نقاط ضعفه الممكنة؟

٤ ـ غير أننا نحن أيضاً لنا قيام بذاتنا: من نحن (المتحررون من السلطة الرمزية والمادية بعامة، وبصورة عرضية ممثلان بفلسطين والعرب) وما أدواؤنا التي تمثل نقاط ضعفنا؟

٥ ـ ومن ثم فتحديد أصل المعادلة يقتضي أن ننظر في أصل كل ذلك، إذا أردنا أن ننتقل من مجرد المقاومة إلى شروط القيام بالذات: ما منزلتنا في الكون ولم يترتب عليها أن يصبح العدو عدواً لنا؟

لذلك فلا بد من البدء بفهم معنى القيام بالذات انطلاقاً من معاني القيام القرآنية، فالآيات الست الأخيرة من الذاريات تحدد معنى القيام بدلالته على البقاء الإلهي، وتحدد القيام الإنساني بدلالته على العبودية لله وحده شرطاً في الوجود المستقل، أو القيام بالذات. ويمكن أن نحصر معاني القيام أو الوجود المستقل على النحو التالي الذي تعتبر المقاومة حشاشة منه. وقد تكون هذه الفضالة ثمالة فتدل على النزول إلى الموت، وذلك هو ترديها الإرهابي. وقد تكون فضيلة فتدل على الصعود إلى الحياة وتلك هي علامة الشروع في تحقيق شروط القيام.

المعنى **الأول**، قيام القدرة التي هي قيمة مادية: ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً**﴾[٢]. وهذا هو المال من حيث هو قيام مادي للأمة. وهذا المعنى بَيِّن فلا يحتاج إلى تحليل أو تأويل بخلاف المعنى الموالي.

المعنى **الثاني** قيام الإرادة التي هي قيمة رمزية: ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس**﴾[٣]. وهذا هو المال من حيث هو قيام رمزي للأمة، فلم تقل الآية إن الناس يقومون في الكعبة فتكون الكلمة دالة على قيام الصلاة بل الكعبة قيام للناس ما يعني أن الناس يقومون بفضلها كما يقومون بفضل المال في آية النساء المتعلقة بالمال قياماً للمخاطبين بالآية.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ٥.

(٣) المصدر نفسه، «سورة المائدة،» الآية ٩٧.

المعنى **الثالث** هو أثر القدرة المادية في القدرة الرمزية، فالمال هو شرط أداء العبادات كلها، شرطها المادي وبخاصة الجهاد. والصلاة تقتضي الطهارة وهي بكلفة. والصيام يقتضي القدرة البدنية وهي بكلفة. والزكاة والحج، دور المال فيهما في غنى عن الإثبات. أما الجهاد فلا يمكن أن يتصوره المرء من غير مال. وتبقى الشهادة، وهي شرط الفروض الأخرى وعاصمة شرطها المادي، فتكون منزلة المال فيها جميعاً أنه أداة ليس للدنيا وحدها، بل وكذلك شرط القيام بالواجبات الدينية. لذلك فهذا المعنى **الثالث** هو ثمرة أثر القيام المادي في القيام المعنوي.

المعنى **الرابع** هو أثر القدرة الرمزية في القدرة المادية: والقيام الرمزي هو غاية الجهاد بمعانيه الخمسة أعني:

١ ـ القتال وهو الجهاد الأصغر.

٢ ـ العبادة وهي الجهاد الأكبر.

٣ ـ شرط القتال أو القوة النظرية والمادية التي هي الجهاد الصغير.

٤ ـ شرط العبادة أو القوة العملية والروحية التي هي الجهاد الكبير.

٥ ـ وحدة الكل أو حرية الإرادة التي تمثل أصل كل جهد وجهاد.

وهذا المعنى الأخير الجامع صاغته آيتان من الذاريات: ﴿**فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين**﴾[٤] أي أنهم فقدوا القدرة المادية والرمزية فباتوا عاجزين عن النصر بكل معانيه. وبفضل هذا المعنى المحقق للقيام المادي والرمزي يزول الخلل البنيوي في الصراعين المادي والرمزي بيننا وبين العدو:

في الصراع المادي: لن يتحقق الانتقال من المقاومة إلى القيام إلَّا إذا أصبح إنتاجنا لأدوات الحرب المادية أو قيم القدرة ذاتياً لنستغني عن اللجوء إلى مساعدة العدو المادية، فلا يمكن أن تحارب عدواً بما يصنع هو ثم تربح الحرب بحق لأنك بفعلك تثبت قدرته المبدعة وتستسلم له رمزياً إذ تبقى تابعاً حتى لو انتصرت مؤقتاً في حرب من الحروب العرضية.

في الصراع الرمزي: لن يتحقق الانتقال من المقاومة إلى القيام إلَّا إذا أصبح إنتاجنا لأدوات الحرب الرمزية أو قيم الإرادة إنتاجاً ذاتياً لنستغني عن اللجوء إلى قيم الخصم فلا نكون محاربين له من أجل أن نحقق ما يريد منا. أغلب الشعوب التي استقلت تغربت بعد الاستقلال أكثر مما كانت متغربة قبله. ويكفي أن تنظر ما يحدث في المغرب العربي في العلاقة بين اللغتين العربية والفرنسية.

ويمكننا الآن أن نحدد شروط القيام تحديداً مفهومياً أولاً كما أثبتهما القرآن الكريم واصلاً إياها بالرسالة التي كلفت بها الأمة انطلاقاً من آيتين قرآنيتين تحددان منزلتنا في الجهاد بهذا المعنى لتحقيق شروط أداء الأمانة أو شروط تحقيق الرسالة:

---

(٤) المصدر نفسه، «سورة الذاريات،» الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.

الآية الأولى هي ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله**﴾[٥].

والآية الثانية هي: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط**﴾[٦].

وذلك هو البعد الرمزي من القيام أو المنزلة بكل عناصرها، فهي في الآيتين صفتان تنسبان إلى المؤمنين في علاقتهما بالله وبالقسط فتكون ٢ X ٢ (قوامين بالقسط وقوامين لله شهداء بالقسط وشهداء لله) يضاف إليها الأصل الذي هو الإيمان صفة للمنادى، الإيمان بالمعنى الإسلامي أي الأصل الذي تنتج منه هذه المنزلة كما تحددها الآيتان **١٠٤** و**١١٠** من آل عمران، أعني المعنى نفسه مأموراً به ومخبراً عنه بصورة تجعل الأمر في محل الأمر بتحقيق الشرط، والخبر في محل حصول جواب الشرط إذا حُقق الشرط: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأؤلئك هم المفلحون**﴾ و﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون**﴾[٧].

لن نتخلص من تعريف الغرب الإضافي إلينا وتعريفنا الإضافي إليه إلا بالنظر إلى مقومات الوجود الذاتي للطرفين.

وبعد التحديد المفهومي يأتي التحديد الصادقي بعوامل خمسة تعيِّن ما صدق المفهوم الذي أشرنا إليه في التحديد **الأول:**

١ ـ المحدد المكاني الجغرافي: وسط المعمورة التي تحدد مسار الحضارة الكونية منذ سبعة آلاف سنة.

٢ ـ المحدد الزماني التاريخي: وسط التاريخ الذي نقل البشرية من التاريخين المتقدمين على الوسيط والمتأخرين عنه.

٣ ـ المحدد السلمي أو التشريحي المحدد لأجهزة العمران: بنية العمران المتجاوز للأدواء الخمسة.

٤ ـ المحدد الدوري أو المحدد لوظائف أجهزة العمران: التحرر من معوقات السلطانين الروحاني والزماني حضارياً ومن معوقات السلطانين الرزقي والذوقي وأصل كل السلاطين بجعل النظر هو الأصل في كل ذلك.

٥ ـ المحدد القيامي، أو طبيعة الهوية الحضارية والروحية من حيث هي قيام ذو رسالة كونية تحقق التحرر الملي والمذهبي والعرقي والطبقي وتضع مبدأ الأخوة الآدمية. وذلك هو

(٥) المصدر نفسه، «سورة النساء،» الآية ١٣٥.
(٦) المصدر نفسه، «سورة المائدة،» الآية ٨.
(٧) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآيتان ١٠٤ و١١٠ على التوالي.

البعد المادي من القيام، وبذلك يتطابق البعد الرمزي والبعد المادي من قيام الأمة لتكون مستعدة فعلاً لأداء الأمانة. وذلك ما كان علينا بيانه (C.Q.F.D).

رابعاً: في استراتيجية التأثير المتبادل بيننا وبين تغريب العالم

لن نتخلص من تعريف الغرب الإضافي إلينا وتعريفنا الإضافي إليه إلا بالنظر إلى مقومات الوجود الذاتي للطرفين، المقومات التي تعلل هذه الإضافة في علاقتهما أحدهما بالآخر. ويقتضي ذلك أن نفرغ من تحديد الأسئلة التي ستساعدنا على فهم علل تقدم التحديد الإضافي على التحديد غير الإضافي أو التحديد بالذات الأسئلة التي نعود إليها لاحقاً لفهم ظرفية العولمة صراعاً كونياً بين نموذجين للحياة البشرية المخلدة إلى قيم الأرض أو المشرئبة إلى ما يتعالى عليها من دون الحط من شأنها. وهذه الأسئلة تنقسم إلى جنسين كلاهما مضاعف مع أصل تنبع منه جميعاً على النحو التالي:

الجنس الأول: عوامل فعل العدو فينا:

١ ـ ما المؤثرات التي يحركها العدو لكي يفعل فينا، مستمداً إياها من ثقافتنا (أدواؤنا الخمسة التي ورد ذكرها في المسألة السابقة) وكيف نعالجها لئلا نحتاج إلى رد الفعل عليها؟

٢ ـ ما المؤثرات التي يستمدها العدو من ثقافته للتأثير فينا بإغراء شبابنا ونخبنا بنسخ ممسوخة منها، لكونه لا يقصد معانيها الإيجابية التي هي قيم مشتركة بين الحضارات البشرية؟

الجنس الثاني: عوامل فعلنا في العدو:

٣ ـ ما المؤثرات التي يمكن أن نحركها في العدو لكي نفعل فيه استمداداً لها من ثقافته (أدواؤه الخمسة التي سنذكر لاحقاً) أو بصورة أوضح ما أدواء العدو التي يمكن أن تمكنا من التأثير فيه وكيف نعالجها لنجعله في موقع راد الفعل ؟ وكيف نستعملها لكي نضطر العدو إلى موقف من يرد الفعل؟

٤ ـ ما المؤثرات التي يمكن أن نحرك بها العدو استمداداً من حضارتنا من دون أن نلجأ إلى الخداع كما يفعل، أعني معاني الأخوة البشرية في السلم وأخلاق الفروسية في الحرب (كما فعل محرر القدس)؟

الأصل الجامع بين كل العوامل:

٥ ـ في دلالة الصراع على المصير الواحد لأن العدو مهما احتدت العداوة معه يبقى إنساناً يشاركنا في البنوة الآدمية وفي قابلية الاهتداء إلى الخير والحق فضلاً عن كون كلتا المجموعتين الإسلامية والغربية في خطر فقدان المبادرة الحضارية، لأن نتيجة الحرب بينهما ستكون لصالح الأقطاب المحيطة بالعالم الإسلامي. عندئذ يمكن الانتقال إلى مقومات الذاتين من غير الإضافة الطافية على السطح والحائلة دون فهم علل الصدام العدائي بين الحضارتين، مع التركيز على مقومات ذات العدو التي تعد العامل المجهول في المعادلة الاستراتيجية العربية الإسلامية تسليماً جدلياً بأن مقومات ذاتنا هي من المعلوم عند الاستراتيجين العرب والمسلمين،

فالمطلوب أن نحدد أدواء الوجود الغربي، أدواءه التي يمكن أن تفهمنا تصرف الغربيين العدواني في ما بينهم ومع أي كائن بما في ذلك الكون الطبيعي فتساعدنا على التصرف المفيد معهم بالمعنى الذي أشرنا إليه في (ثالثاً).

فلا يمكن أن نفهم الغرب ـ من حيث هو مد تغريبي لا من حيث هو رقعة جعرافية ـ إذا اقتصرت نظرتنا إليه من خلال ما ننسبه إليه من موقف إزاءنا فحسب. للغرب بهذا المعنى أمور ذاتية تحدد وضعه وصلته بغيره، وليس موقفه منا إلا أحد المترتبات عليها. ليس الغرب خاليا من المشاكل الذاتية بحيث نتصوره مجرد عدو ليس له من وجود إلا بصلته بنا. إنما الغرب جماعة مؤلفة من قطبين على الأقل ويمكن مجازاً وقياساً على الشرق أن نسميهما الغرب الأدنى وتمثله أوروبا الساعية إلى الاتحاد والغرب الأقصى وتمثله الولايات المتحدة. ولعل الجسر بين القطبين تمثله المملكة المتحدة، فتكون انكلترا في الجسر بين الغربين الأدنى والأقصى كالهند في الجسر بين المشرقين الأدنى والأقصى.

ويمكن أن نرجع أزمة الغرب التقليدي إلى عاملين: **أولهما** بصنفيه ناتج من حرب التحرر من هيمنة مستعمرتيه المتغربتين عليه، مستعمرته الشرقية **(الاتحاد السوفياتي)** ومستعمرته الغربية **(الولايات المتحدة الأمريكية)** و**الثاني** ناتج من طبيعة النظام الديمقراطي الشعبوي الذي يختلف اختلافاً جوهرياً عن النظام الديمقراطي الأرستقراطي أو نظام تشريع النخب المتحررة من الحاجة :

صنفا العامل الأول

الصنف الأول من العامل الأول: هو انحصار دوره بعد تحرر مستعمراته التي لم تتغرب بنوعيها انحصاراً ليس سببه هذا التحرر فحسب بل افتكاك مستعمرتيه الغربيتين عن مستعمراته غير الغربية: مستعمراته الآسيوية والأفريقية ثم الأمريكية الجنوبية وكل الجزائر التي في المحيطين.

والصنف الثاني من العامل الأول: هو محاولات توحيد أوروبا بشقيها الغربي والشرقي وتجاوز حزازات الماضي من أجل استرداد الدور الكوني والدخول في معركة تقاسم العالم مرة ثانية.

وفيهما كليهما يؤدي العالم الإسلامي الدور الأساسي، فنحن الذين كان لنا الدور الأول في القضاء على الإمبراطوريتين الفرنسية والإنكليزية لأننا نقود تحرير العالم الثالث. ونحن الذين نتصدى لمستعمرتي الغرب التقليدي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فنساعد على تحرير أوروبا منهما.

يستعد الغرب التقليدي لاسترداد دوره بفضل توحيد أوروبا وتحرير شرقها من مستعمرته الشرقية من دون أن يتمكن بعد من تحرير غربها من مستعمرته الغربية، وبفضل محاولات ربط علاقات جديدة مع من تمكن من النمو من مستعمراته القديمة وبخاصة في آسيا وأمريكا اللاتينية. ولم يبق له مجال صراع ممكن مع مستعمرته الغربية إلا في آسيا الإسلامية وأفريقيا.

صنفا العامل الثاني

الصنف الأول من العامل الثاني: من نتائج النظام الديمقراطي الذي هو ألغارشي متخف أنه في الجوهر ثمرة استراتيجية السلم الداخلية من أجل الحرب الخارجية في المعركة الوجودية المنتسبة إلى التاريخ الطبيعي حول ثروات المعمورة وأسباب العيش فيها. لكأن التاريخ البشري فيه قد دار دورته ليعود إلى صراع القبائل على الماء والكلأ والهواء.

والصنف الثاني من العامل الثاني: ومن نتائج النظام الديمقراطي الذي هذا جنسه، ازدواج المعايير الدائم لأن ما لأجله خلق هذا النظام يقتضي تقديم الأثرة على الإيثار فيكون بالضرورة محتاجاً إلى نوع من النفاق البنيوي الذي يقتضي أن يكون القول دائماً مضاداً للفعل مع الآخرين الذين هم أعداء، بالطبع، ما دام القانون الحاكم للعلاقات هو قانون التاريخ الطبيعي لا قانون التاريخ الخلقي.

النظام الديمقراطي الشعبوي يؤدي بالضرورة إلى نوع من الحرب الأهلية الباردة الدائمة في الداخل أو التعايش السلمي الداخلي من أجل الحرب الخارجية الحارة الدائمة مع كل المنافسين على ثروات العالم، لذلك فأسباب الحروب القادمة هي حروب تقاسم الثروات التي صارت نادرة في العالم بسبب التكاثر وتنافس الموارد. ونتائج النظام الديمقراطي الشعبوي تتحكم الفلسفة التاريخية الداروينية العامة التي لا تقتصر على ضم الإنسان إلى تاريخ الحيوان الطبيعي بل هي لا تستثني تاريخه الخلقي من قانون هذا التاريخ: **الصراع من أجل الحياة بقاعدة البقاء للأقوى**.

والسؤال الجوهري هو كيف يمكن للعرب والمسلمين أن يستعدوا لهذه الحرب الدائمة التي هي جوهرية للنظام الديمقراطي الشعبوي، لكونها علة وجوده، كيف يستعدون للفعل في مثل هذه الظرفية التي هي جوهر ظرفية العولمة بدل العيش على رد الفعل على نتائج الحرب التي مرت، وبخاصة إذا ضممناها إلى ما وصفنا به أزمتي الوجود الغربي نفسه؟

الأزمة الأولى هي تعدد المنافسين لما كانت تتميز بها حضارة الغرب من علم وتكنولوجيا صارا شاملين للكثير من القوى الصاعدة، ومن ثم العودة إلى عقلية الغزو للحفاظ على السهم الأوفر من ثروات العالم.

والأزمة الثانية هي الفشل البيولوجي أو الخوف من الانقراض ومن ثم نكوص الغرب عن القيم الليبرالية التي تسمح بالحدود المفتوحة والتخاصب الحضاري، ومن ثم الاضطرار إلى التنكر لكل القيم الغربية.

خامساً: تفسير الآية ٦٠ من الأنفال

إن اللحظة التاريخية الكونية الحالية هي مرحلة التاريخ البشري التي تتميز بسيطرة الحرب الشاملة التي يكون فيها الجميع عدو الجميع كما هو شأن التاريخ الطبيعي والتي يوظف فيها كل فريق أدواء الفرقاء الآخرين ليحقق فيهم شروط الحرب الأهلية في كل مستويات قيامها ليلهيها عنه ويعطلها في جهد المنافسة: **التقانص المطلق**.

لذلك فالحل بالنسبة إلى المسلمين هو في فهم مقومات الجهاد في سبيل الله بمعناه الأسمى كما حددته سورة الأنفال، آيتها الستون لتحرير البشرية من التقانص المستند إلى التناكر والعودة إلى السلم والمساعدة على التعارف؛ أعني الاستعداد الرادع الحائل دون التقانص: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تُظلمون**﴾.

١ ـ تحديد طبيعة القوة المطلوبة

القوة الشرط بمستوييها المباشر وغير المباشر:

أ ـ الاقتصاد.

ب ـ العلم (بدليل ورود ذكر العلم والإنفاق) القوة المشروطة بمستوييها المباشر وغير المباشر.

ج ـ الجيش.

د ـ الخطط الحربية (بدليل ورود ذكر الرباط والخيل). والأصل الواحد للقوة الرادعة.

هـ ـ استراتيجية التخطيط التوقعي للمستقبل لتجنب المفاجآت.

إن اللحظة التاريخية الكونية الحالية هي مرحلة التاريخ البشري التي تتميز بسيطرة الحرب الشاملة التي يكون فيها الجميع عدو الجميع.

٢ ـ تحديد العدو المقصود

أ ـ عدو الله من دون إعلان العداوة لا منه ولا منا: وهو عدو محتمل ومثاله اليهود قبل إنشاء إسرائيل.

ب ـ عدوكم من دون أن يعترف بالعداء لله: أمريكا قبل حربها الأخيرة على المسلمين منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ج ـ عدوكم أي من نعاديه بسبب ما نعتقده من انحرافه العقدي: مثاله يهود إسرائيل بعد إنشائها.

د ـ يعادي الله أي من يعاديه بسبب عدائه لعقيدتنا: أمريكا منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١.

هـ ـ الذين لا تعلمونهم ويعلمهم الله هم المنافقون الذين يجمعون كل هذه العداوات ويتظاهرون بالصداقة.

ويتأكد هذا المعنى من ورود ﴿**لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ فضلاً عن «**من ورائهم**»: فهي ليست للعطف بل لإفادة التخفي أو الدفع الخفي أعني التحريض غير العلني. وهذا التعريف يعني أن الأمر يتعلق بظاهرة النفاق التي هي خفية ولا يعلمها إلا الله عند عدم الحصر في ظرفية معينة لأن النص لم يكن مقصوراً على زمن الرسول بل هو مطلق الفائدة،

فإذا تحددت الظرفية، تصبح معلومة لمن يتدبرها، لأنها بعينها تعين الأمر ليضم بقية سكان المعمورة ممن لهم فائدة في نتيجة المعركة بسبب وحدة المعمورة أو العولمة. ومن ثَمَّ فهم كل المنافقين من العالمين المنتظرين لنتائج المعركة مع الأصناف الأربعة السابقة وهم من الأعداء المحتملين الذين على الأمة أن تستعد لهم في عصر العودة إلى قانون التاريخ الطبيعي من دون أن تعتدي حصراً للردع في منع الحرب، أو في الدفاع المؤدي إلى النصر عند حدوثها. إن كل المتخفين من حلفاء أعدائنا في الداخل وفي الخارج، وإن لم يعلنوا العداوة، يمكن اعتبارهم متربصين بالمسلمين بسبب حاجتهم إلى ما عندهم، وبخاصة، منذ نضوب الثروات بعد التكاثر المهول لسكان المعمورة، وبسبب عجز المسلمين عن الدفاع عن ثرواتهم المادية والرمزية وعن جغرافيتهم وتاريخهم. ومثال ذلك الأقطاب الأربعة المحيطة بدار الإسلام (اثنان شرقاً هما الصين والهند، واثنان غرباً هما روسيا وأوروبا المتحدة) مع الطوابير الخامسة المندسين في دار الإسلام، أعني كل عملاء هؤلاء وعملاء أمريكا وإسرائيل. وهم لا يكادون يحصون.

خاتمة

يعترض جل المتكلمين باسم الفكرين الفلسفي والديني على مثل هذا التحليل للوضعية الاستراتيجية التي تمر بها الأمة، فيعيبون على صاحبها الاعتماد على التحليل العقلي والتأويل النقلي جامعاً بينهما جمعاً من دونه لا يمكن للمرء أن يثبت صحة دعويي الرسالة الإسلامية:

الدعوى الأولى، هي الاستعاضة عن الفعل التاريخي المبني على المعجزات بالفعل التاريخي المبني على أسباب الفعل البشري الطبيعية، بدليل الحاجة إلى الاجتهاد الاستراتيجي (النظر) والاستعداد الجهادي (العمل) لتحقيق الرسالة وهما شرطان واجبان. والمعلوم أن قصص الأنبياء في القرآن الكريم يرجع فشل الرسالات السابقة إلى قصورها في الاعتماد على الأسباب الطبيعية للنصر في جهاد تحقيق القيم في التاريخ. وما ظنه عبد المسيح الكندي هجاء للرسول الكريم هو في الحقيقة مدح لأن قيادة الجيوش وتحقيق الأهداف بأدواتها وأسبابها الطبيعية هو الدليل القاطع على كونية قانون التاريخ الخلقي للأمم الفاعلة في التاريخ وليس الاعتماد على النصر الخرافي بالمعجزات السماوية.

وأما **الدعوى الثانية** فهي نسبة السلطتين الروحانية والزمانية للأمة بتوسط أولياء الأمر؛ أعني العلماء والأمراء الثقات والأمناء المنتخبين وليس المستبدين بالأمر في مستوياته التي أشرنا إليها؛ أعني سلطة التشريع، وسلطة التنفيذ، وسلطة القضاء، وسلطة التعليم، وسلطة الإعلام التي هي جميعاً شروط الرأي العام الحر المعبر عن إرادة الأمة في مجال قيم الرزق وقيم الذوق وقيم العمل وقيم الوجود وقيم النظر. هذه الدعوى هي التي تبرر الصدام ضد تغريب العالم أو عولمته بمعايير الديمقراطية الشعبوية التي وصفنا وما تؤدي إليه من أمراض.

لكن هؤلاء المعترضين المتكلمين باسم العقل والنقل هم عندنا اليوم مجرد مقلدين لفضلات فكر ميت وليسوا مفكرين لا عقلاً ولا نقلاً: فضلات الفكر الديني من ماضينا وفضلات الفكر الفلسفي من ماضي أوروبا. ولذلك فهم عاجزون عن تصور استراتيجية الحرب المطلقة التي أعادت البشرية إلى منطق التاريخ الطبيعي ونفت بإطلاق منطق التاريخ

الحضاري. وحتى لو قبلنا وسمينا التعليم المتردي للفكر الفلسفي والديني في بعض بلاد العرب فلسفة وديناً فإن هذا التعليم يعاني حاجزين يصعب أن نتصور التخلص منهما ممكنا في أجل منظور.

الحاجز الأول هو غلبة التوظيف الأيديولوجي على مضامين الفلسفة التي يتداولها نجوم التفكير التنويري عندنا. وشتان بين الوظيفة التنويرية التي يمكن أن تكون مصاحبة للفكر الفلسفي الجدي الباحث في أنشطة الفكر الإنساني العلمية والإبداعية عندما يكون موجوداً بحق وقائماً بدوره وبين الأيديولوجيا التي يزعم أصحابها التنوير حصراً للحريات الفكرية في المحاكاة القردية للأشكال المتردية لما صار ينعت بالالتزام الفلسفي كما في الحركات الماركسية أو الوجودية أو الإباحية، فالفكر الفلسفي ما بعد فكر الأنشطة الفكرية في مجالات القيم الخمسة (قيم الرزق وقيم الذوق وقيم النظر وقيم العمل وقيم الوجود) وليس عملاً مباشراً كما يريده دراويش التوظيف الإيديولوجي.

وأما **الحاجز الثاني** فهو ما تضاعف قوته إفراط أصحاب الحاجز الأول. إن تزمت أدعياء الفكر الديني يزداد بمجرد الاحتجاج بسلوك أدعياء الفكر الفلسفي الذين يحولون كل نتائج النهضة الأوروبية إلى شروط في النهضة العربية متناسين أن أوروبا لمَّا حققت ثوراتها العلمية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية لم تكن لها الأمور التي صار أصحاب التقارير العربية يعتبرونها شروطا للنهوض.

ذلك أن هذه الشروط تعود في الجملة إلى محو كل الثقافة العربية الإسلامية (وتلك هي غاية الحرب الرمزية أو حرب الأفكار في استراتيجية اليمين المتصهين) وتعويضها بثقافة التغريب دفعة واحدة وبقوة الدولة وإذا عجزت فبقوة التدخل الأجنبي. ولعل أفضل مثال هو ما يسمى تنمية المجتمع المدني، فهذه المسألة لا علاقة لها بتنمية المجتمع المدني، بل هي في الحقيقة السعي إلى القضاء على المجتمع المدني الأهلي بدل تنميته وتعويضه بمجتمع مدني بديل، وظيفته الأولى والأساسية تغريب المجتمع بالعنف الرمزي وبالعنف المادي إذا لزم الأمر استبدالاً لثقافة أهلية بثقافة أجنبية يعتبرونها السبيل الوحيد للتحديث. لذلك فهذا المجتمع المدني المزعوم يحتاج إلى عكازين أجنبيين هما التمويل والإعلام.

وفي الجملة، فإن الفكر فعل غير مباشر سواء كان دينياً أو فلسفياً. وذلك هو مقدار التزامي الشخصي في المسائل العملية التي تقتضي علماً مباشراً لست من ممارسيه لا ترفعاً بل طلباً لسد ثغرة في ثقافتنا التي غلبت عليها موضة الالتزام المباشر المناقض لكل شروط التفكير العميق، فالفكر الديني مثله مثل الفكر الفلسفي في كونه ما بعد فكر لكل الأنشطة الفكرية وليس عملاً مباشراً بل هو فكر ما بعد لكل أنشطة الإرادة البشرية. ومثلما يكون الفكر الفلسفي نقداً معرفياً لأفعال الفكر من أجل تسديدها المعرفي منهجاً وغاية يكون الفكر الديني نقداً خلقياً لأفعال الإرادة من أجل تسديدها الخلقي بالدعوة الحق والهداية بالتي هي أحسن. وذلك هو ما ينقص لحظتنا التي حظينا بها فكانت الكرَّة الثانية لدورنا الكوني كما حاولت تصويرها في هذه الدراسة السريعة □